جامع عمرو بن العاص.. في صدارة مساجد مصر وإفريقيا

بعد الفتح الإسلامي لمصر في غرة المحرم سنة 20 هجرية الموافق 8 نوفمبر 641 ميلادية أسس الفاتح الكبير «عمرو بن العاص» مدينة الفسطاط لتكون أول عاصمة إسلامية لمصر، وعندما أرسل له الخليفة «عمر بن الخطاب» – رضي الله عنه – ليبني مسجدا لإقامة شعائر صلاة الجمعة بنى «عمرو بن العاص» هذا المسجد الذي سمي باسمه حتى الآن، وكان يعرف أيضا بمسجد النصر ... والمسجد العتيق ... وتاج الجوامع، فكان بذلك أول مسجد في مصر وافريقيا والرابع في الإسلام بعد مساجد المدينة (بناه الرسول – صلى الله عليه وسلم – في العام الهجري الأول) والبصرة (بناه عتبة بن غزوان – رضى الله عنه – عام 14هـ /635م) والكوفة (بناه سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه عام 17هـ / 638م) .

إشراف الصحابة

أشرف على بنائه أربعة من الصحابة هم:

أبو ذر الغفاري
أبو بصرة
محمية بن جزء الزبيدي
نبيه بن صواب البصري

تحديد القبلة

وقام بتحديد القبلة فيه جمهور من الصحابة – رضوان الله عليهم – منهم:

ربيعة بن شرحبيل
عمر بن علقمة القرشي
الزبير بن العوام
المقداد بن الأسود
عبادة بن الصامت
رافع بن مالك
أبو الدرداء
فضالة بن عبيد الله
عقبة بن عامر

وغيرهم من أجلاء الصحابة الفاتحين، وافتتح بأول صلاة جمعة مباشرة فكان بذلك أول مسجد جامع في مصر والقارة الافريقية ليخرج منه نور الإسلام والإيمان إلى باقي البلدان.

إنشائه

انشئ هذا المسجد عام 21هـ / 642م على أرض كانت حديقة تبرع بها «قيسبة بن كلثوم» وكان يشرف على النيل، ومساحته وقت إنشائه 50 ذراعا في 30 ذراعا وله ستة أبواب، وظل كذلك حتى عام 53هـ / 672م حيث توالت التوسعات فزاد من مساحته «مسلمة بن مخلد الأنصاري» والي مصر من قبل «معاوية بن ابي سيفان» وأقام فيه أربع مآذن، وتوالت الإصلاحات والتوسعات بعد ذلك على يد من حكموا مصر حتى وصلت مساحته بعد عمليات التوسيع المستمرة نحو اربعة وعشرين الف ذراع معماري، وهو الآن120 في 110امتار (أي حوالي 13200 متر) ويعتبر أقدم اثر إسلامي باق حتى الآن في مصر والقارة الافريقية.

التخطيط المعماري

كان التخطيط المعماري الأصلي للجامع يتكون من مساحة مستطيلة طولها نحو 45 مترا وعرضها نحو 27 مترا ، وقد أحيط الجامع من جهاته الأربع بطريق ، و لم يكن له صحن ولا محراب مجوف ولا مئذنة وكان به منبر وقد بنيت جدران الجامع الخارجية من الطوب اللبن وكانت خالية من الزخارف

أما ارتفاع الجامع من الداخل فمن المرجح أنه كان حوالي ثلاثة أمتار مثل المسجد النبوي .

وقد أجريت على جامع عمرو بن العاص عدة زيادات وإضافات خلال عصور إسلامية مختلفة وحتى عصرنا الحالي.

التخطيط الحالي للجامع

اما التخطيط الحالي فإنه يتكون من مدخل رئيسي بارز يقع في الجهة الغربية للجامع الذي يتكون من صحن كبير مكشوف تحيط به أربعة أروقة ذات سقوف خشبية بسيطة، أكبر هذه الأروقة هو رواق القبلة ، ويصدر رواق القبلة محرابان مجوفان يجاور كل منهما منبر خشبي، كما يوجد بجدار القبلة لوحتان ترجعان إلى عصر المماليك .

كما يوجد بالركن الشمالي الشرقي لرواق القبلة قبة يرجع تاريخها إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، أما صحن الجامع فإنه يتوسطه قبة مقامة على ثمانية أعمدة رخامية مستديرة الشكل، وكانت نوافذ الجامع القديمة مزخرفة بزخارف جصية لا زالت بقاياها موجودة بالجدار الجنوبي، أما عقود الجامع في رواق القبلة فإنها ترتكز على أعمدة رخامية ذات تيجان مختلفة استجلبت من عمائر قديمة .

حريقان وزلزال وانهيار

شهد المسجد أحداثاً جساماً، كما شهد إهمالاً على مدى تاريخه الطويل أهمها:

الحريق الأول الذي شب عام 275هـ /888م وقام «خمارويه بن أحمد بن طولون» بتجديده وتعميره.

الحريق الثاني وكان عام564هـ /1168م في عهد «شاور» وزير الخليفة الفاطمي «العاضد» وبعد ذلك بحوالي أربع سنوات أصلحه «صلاح الدين الأيوبي»

الزلزال المدمر الذي حدث عام 702هـ / 1302م وقد الحق بالمسجد ضرراً بالغاً فقام بإصلاحه «الناصر محمد بن قلاوون».

الزلزال المدمر الثاني الذي هز مصر كلها الاثنين 15 ربيع الثاني 1413هـ / 12 اكتوبر 1992م وأصيبت بعض أعمدته وحوائطه بشروخ وتصدعات وقامت هيئة الآثار المصرية بترميمه.

انهيار خمسين متراً من سور حرم الجامع ليلة الجمعة 13 شوال 1414هـ / 25 مارس 1994م وقامت هيئة الآثار بإقامة سور خرساني بارتفاع ستة أمتار حول الجامع ومرافقه.

في يوم الأحد الموافق 5 ذو القعدة 1416هـ / 24 مارس 1996م انهار 150 متراً من سقف المسجد في الجزء الجنوبي الشرقي بإيوان القبلة، وقد أمر «الرئيس محمد حسني مبارك» بفك إيوان القبلة وإعادة البناء وتصويب الأخطاء المعمارية التي نتجت عن تجديدات «مراد بك» بعد ما عرض عليه الدكتور «عبد الرحيم شحاتة» محافظ القاهرة الحالة السيئة لهذا الإيوان.

ويشاع أن القبة الموجودة بالركن البحري الشرقي بالجامع بها قبر الصحابي «عبد الله بن عمرو بن العاص» – رضي الله عنه – وهذا غير موثوق به لأن المؤرخين اختلفوا في مكان دفنه، بل وفي سنة وفاته، ولم يرد ذكر القبر في أقوال المؤرخين والرحالة في العصرين المملوكي و العثماني.

لم يقتصر نشاط المسجد على أداء الفرائض الدينية منذ إنشاؤه .. بل كانت فيه محكمة لفض المنازعات الدينية، وكان به بيت المال.

الجمعة الأخيرة من رمضان

نشأ هذا التقليد أيام الدولة الفاطمية .. فقد كان الخليفة الفاطمي يسير بركبه للاحتفال برؤية هلال شهر رمضان ثم يستريح أول جمعة منه، والجمعة الثانية يؤديها في جامع الحاكم، والجمعة الثالثة في الجامع الأزهر، أما الجمعة الرابعة ففي جامع عمرو بن العاص، وظل هذا التقليد متبعاً حتى الآن، حيث يزدحم المسلمون في المسجد بالآلاف، ومنهم من يأتي من مختلف البلدان الأفريقية والآسيوية .

أول مسجد في مصر وافريقيا والرابع في الإسلام بعد مسجد المدينة

صفات الجامع

عرف الجامع بعدة مسميات منها أهل الراية الأعظم، مسجد الفتح، وجامع عمرو، والجامع العتيق، وجامع مصر، وتاج الجوامع.

كما وصفه ابن دقماق قائلا : «إنه إمام المساجد، ومقدم المعابد .. وقطب سماء الجوامع .. ومطلع الأنوار اللوامع .. ومنزل قلادة البنيان .. وعقيلة بيوت الملك الديان .. وموطن أولياء الله وحزبه .. ومنزل أشياع الدين وصحبه .. طوبى لمن يحافظ على الصلوات فيه، وواظب على القيام بنواحيه، وتقرب منه إلى صدر المحراب، وخر لديه راكعا وأناب، ومال إليه كل الميل، وجنح إلى حضرته في جنح الليل، وصرف همته لاجتناء ثمرة خبره، وأدرك فضيلة جامعته التي لا تحصل أبدا في غيره.

جامعة إسلامية

ويعتبر المسجد أول جامعة إسلامية في مصر وافريقيا تأسست على يد الصحابي الكبير «عبد الله بن عمرو بن العاص» – رضي الله عنه – فقد ألقى فيه الإمام الشافعي دروسه عند قدومه لمصر، وبلغ عدد الدارسين فيه أكثر من ألفي طالب في عشر حلقات في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكذلك السيدة نفيسة رضي الله عنها .

وقد ذكر «السيوطي» أنه بلغ حسب تقدير بعض المؤرخين أن أكثر من مئة وأربعين صحابياً كانوا أساس «مدرسة مصر الدينية» وهي المدرسة التي كان مركزها «جامع عمرو بن العاص».

وذكر «المقريزي» نقلاً عن «شمس الدين بن الصائغ الحنفي» أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء في عام 749هـ بعضاً و أربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح مكانه.

ويكفيه فخراً أن الإمام الشافعي ألقى فيه دروسه و أبو طاهر السلفي ، وخطب فيه العز بن عبد السلام .

كما يكفيه فخراً أن حلقات الدرس فيه في البداية كانت سنة 326هـ (33) حلقة منها (15) حلقة للشافعيين و (15) حلقة للمالكيين و (3) حلقات للأحناف ثم ارتفع العدد إلى (110) حلقات. فإذا قدرنا أن كل حلقة بها (20) مستمعا فلا أقل من أن يكون مجموع طلاب العلم في جامع عمرو بن العاص حينذاك أكثر من ألفي طالب..

بل كان في المسجد عام 415هـ حلقة درس ووعظ للسيدات ، تقوم عليها إحدى النساء.

أبرز تلاميذه

ومن أبرز تلاميذ جامعة وجامع عمرو بن العاص الذين تخرجوا فيه «الليث بن سعد» الذي أصبح بعد ذلك أستاذا وفقيها به ثم صار إماما .. بل كاد أن يكون صاحب مذهب خامس في الإسلام إلا أن أهله ضيعوه وضاعت مؤلفاته وفتاواه وتفسيره للقرآن الكريم، حيث قال فيه الإمام «الشافعي»:

الليث أفقه من مالك إلا أن قومه أضاعوه، وتلاميذه لم يقوموا به

وامتدادا لهذا الدور الثقافي والتعليمي للجامع توجد فصول تقوية مجانية ومكتبة بها العديد من أمهات الكتب والمراجع الدينية هذا بخلاف دروس العلماء الأجلاء الدكتور إسماعيل الدفتار خطيب الجامع والشيخ صابر سليمان إمام المسجد والشيخ عبد الحفيظ غزال والشيخ أحمد حسن والشيخ مصطفى اللاهوني والشيخ أحمد تميم والشيخ محمد أبو رواش والشيخ محمد مصطفى كما تعقد الأستاذة سميرة عمار للسيدات درسا في يومي الجمعة والثلاثاء أسبوعيا.

قالوا عن جامع عمرو بن العاص

«كان يجب أن يكون جامعة أهلية، لأنه «أول مسجد جامع» بني في مصر، و درسا فيه الشافعي والليث، وكان يجب أن يكون جامعة أهلية على الطريقة الإسلامية .. ولو مبسطة مثل الأزهر القديم.

الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي

«كان جامع عمرو بن العاص مركز الإشعاع الوحيد في مصر الذي ينشر العلم ويدعو إلى الإسلام حتى أننا لا نكون مغالين إذا قلنا: إن إسلام الشعب المصري تحقق في ساحة المسجد العظيم – مسجد عمرو بن العاص – فهو لم يكن مجرد مكان لأداء الصلوات .. بل كان أشبه بخلية نحل تعمل داخله كل عناصر الدعوة وتبذل طاقاتها من أجل إسلام أهل مصر واستقرار النصر الذي تحقق بفتح مصر على أرضها، فدخل الناس من بوابة الجامع العتيق في دين الله أفواجا .. وجاهد الأئمة والدعاة لنشر الإسلام وتعريب لسان أهل مصر تأكيدا للرسالة الحضارية التي حملها الفاتحون المسلمون إلى كل بلد فتحوه، أو بتعبير أدق: أدخلوه في دين الله .. فهو أزهر قبل الأزهر».

الداعية الإسلامي الشيخ الدكتور عبد الصبور شاهين

«إن مسجد عمرو بن العاص مسجد عريق يصل حاضر مصر بماضيها، ومنارة إسلامية، لها أعظم الذكريات وأمجد الآثار الإسلامية والفكرية للدعوة الإسلامية».

الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الشريف

«أعتقد أن هذا المسجد – مسجد عمرو – لم يأخذ حتى الآن حظه من الرعاية كالتي يجب أن يحظى بها وصلا بحاضره مع ماضيه، وربطا بدعوة الإسلام الأولى التي نهض بها هذا المسجد عند مشرق الإسلام في مصر، وهذا يدفعنا الى أن نرحب بأي جهد يبذل في إعادة المسجد إلى مكانته اللائقة التي يعتز بها كل مسلم حينما يرى في هذا المسجد المنارة الشامخة للدعوة والطاعة».

الدكتور إسماعيل الدفتار رئيس قسم الحديث بكلية أصول الدين وخطيب الجامع